شواهد القبور العثمانية

-مقدمة :

الكتابات العربية و النقوش الأثرية و الزخارف الفنية التي سُجلت على شواهد وتراكيب تلك القبور الإسلامية، وكانت سجل ثري في إبراز حضارة كل عهد من العهود الإسلامية ، بجميع الأزمنة التاريخية وأحداثه السياسية وأوضاعه الاقتصادية وظروفه الاجتماعية ، بالإضافة إلى توجهاته ومذاهبه الدينية ، وقد وُجدت الكثير من شواهد القبور و التراكيب في المشرق العربي ومغربه ، وقد سُجلت على ألواحها ونُقشت على أبدانها كتابات باللغة العربية لاسم المتوفى وتاريخ الوفاة ، كما أنها تُكشف عن نوع الحجر المستعمل أو المستخدم في صناعتها. وقد ساعد في ثراء وكثرة هذه الكتابات الشاهدية إلى جانب عامل الفترة الزمنية وكبر الرقعة الجغرافية، تعدد أعراق الشعوب الإسلامية وتنوع ألوان ثقافتها، فانعكس بالتالي ذلك الإرث كله بالإيجاب على منتوجها الفكري و الحضاري في قالب إسلامي.

وحيث أن شواهد المغرب الأوسط لا تختلف اختلافا كثيرا وبينا عن شواهد بقية الأقطار الإسلامية الأخرى من حيث مسايرتها لمعظم التطورات الفنية التي شهدتها الأقاليم الإسلامية في ربوع العالم الإسلامي، سواء ما تعلق منها بالأساليب والطرز الفنية المستعملة فيها أو ما يتعلق بالجانب الجمالي والشكلي للشواهد، أو من حيث نوع النقوش ومحتواها، وأخيرا من حيث ارتباط هذه الكتابات بالجانب الروحي والعقائدي للمجتمع، أو للبعد الأدبي والتاريخي التي تحملها النصوص المنقوشة عليها.

على أن تأثير البيئة المحلية بمقوماتها الفكرية والثقافية والدينية وحتى الفنية تبدو بصماتها جلية وواضحة في صناعة الشواهد بالمغرب الأوسط الأمر الذي أضفى عليها شيئا من الخصوصيات انفردت بها من غيرها، وجعلتها تتميز بها – في بعض الجوانب الفنية والأدبية إلى حد ما – ليس فقط عن شواهد المشرق الإسلامي وإنما كذلك عن شواهد المغرب والأندلس كما سنبينه لاحقا،

ولعل الدارس المتفحص في أشكال شواهد القبور ببلاد المغرب الأوسط سيلاحظ بلا شك أن هذه الصناعة قد مرت بعدة محطات تاريخية في أثناء مسيرتها التطورية الطويلة المقدرة بحوالي إحدى عشرة قرنا، أي من بداية القرن الثاني الهجري بعيد دخول الإسلام إلى ربوع إقليم الشمال الإفريقي، حتى نهاية العصر العثماني.

تعريف القبر :

جمعه قبور : مدفن الإنسان وقد ميز ماكس فن برشم بين القبر ، حفرة الميت و بين التربة أو القبة ، أي البناء المقام فوق الحفرة ، وقد أخذت القبور أشكالا كثيرة من البسيط الذي يتألف من كومة حصى أو تراب أحيانا بلا شاهد إلى المرتفع المزخرف الذي شابه القصور أحيانا

تعريف الشاهد : ويسمى أيضا رخامة أو لوح : بلاطة توضع فوق القبر عند رأس الميت يكتب عليها اسمه وتاريخ وفاته ، وقد ينظم ذلك شعرا ، مع بعض الآيات القرآنية التي تناسب الموت ، وربما أهمل وضع الشاهد في بعض المقابر ، إذا كان المتوفي متواضع الحال ، ويبلغ اتقان بعض الشواهد حفرا وخطا ونحتا ، درجة يضعها في مستوى الأعمال الفنية الراقية ، فتحتل أماكنها في المتاحف لجمال صنعها وللمدلول المعبر ، أثريا وحضاريا وتاريخيا ، وتقوم شواهد القبور بأداء مساعدات للدراسات الأثرية والحضارية ، ويمكنها منها تتبع تطور الكتابة العربية من ناحية النصوص والأساليب الكتابية .

المقصود بالكتابة ما يكتب على قبر الميت أو على لح أو حجر عند القبر ، وتختلف هذه الكتابة فأحيانا يكتب على القبر بعض الآيات القرآنية و الأدعية ، وأحيانا تكتب القصائد في مدح الميت أو رثائه ، وأحيانا تكون الكتابة على القبر تعريفية ، فيكتب على القبر ما يعرف به الميت المقبور ، كاسم الميت وتاريخ وفاته ، وأحيانا يكتب نبذة مختصرة عن سيرته .

موضوعات الكتابة على شواهد القبور :

إن الكتابات الجنائزية على شواهد القبور تتألف من حيث المضمون من العناصر التالية :

- البسملة .
- التعريف بشخص المتوفي .
- عبارات التوحيد و الرسالة الموحدية (إشادة بذكر الله وتعظيم الرسول) أو بعض الآيات القرآنية .
- تاريخ الوفاة .
- الترحم على المتوفي .

وكانت هذه الشواهد تُصنع في الغالب من الحجر أو الرخام، ومن الملاحظ أن الشواهد الأسطوانية الشكل حلت مكان الشواهد المسطحة منذ أواخر فترة حكم صلاح الدين الأيوبي ، ثم عادت الشواهد ذات الشكل المسطح مرة أخرى إلى الظهور من جديد ، وخاصة في عهد المماليك .

أساليب صناعة شواهد القبور:

اتبع العرب المسلمون في نقش شواهد القبور على طريقتين هما:

1- الحفر الغائر: وهي أقدم الطرق وأيسرها وهي نوعان:

الأولى : وهو الحفر الذي كان في بادئ الأمر ينفذ بآلة حادة تشبه المسمار فينشأ عنه النقش القليل الغور والغير المحدد ولا حتى منتظم.

أما الثانية :فهو بسبب عدم انتظام وتحديد إطارات الكتابة للطريقة الأولى، رأي النقاش أنه من الأحسن أن ينقشها نقشا مُتقنا، فأخذ يسوي سطح اللوح المراد الكتابة عليه وتسطيره بخطوط مستقيمة ومتوازية، متساوية البعد بعضها عن بعض ثم يكتب عليها بالمداد الأسود ، وتحفر بآلات دقيقة فتظهر اللوحة محددة ومنظمة الشكل.

2-الحفر البارز: لم تستعمل هذه الطريقة بكثرة إلا ابتداءا من القرن 3هـ9 /م وسبب ذلك أن النقش البارز أصعب من الحفر إذ أن الحفر الغائر يتطلب على النقاش حفر الكتابة فقط بينما في النقش البارز فيحفر كاللوح وتبقى الكتابة بارزة 2

والنقش البارز نوعان:

-الأول : ينبغي على النقاش تحضير تصميما كتابيا سابقا ،ثم يخطط اللوح بخطوط أفقية متساوية الأبعاد ، ثم يكتب عليه النص بالمداد مستعملا القلم الجيد ، ثم يحفر ما حولها بآلات دقيقة ،ثم يسوى الحرف بذاته حتى يظهر أملس.

-الثاني :يستخدم النقاش هذه الطريقة في حالة النقش على الأحجار أو الرخام الصلب، فيكتفي الحافر بالبروز البسيط الذي ينتج عن النقر الخفيف في المناطق الخالية من الكتابة ونشأة هذه الطريقة عندما استعمل الحجر البركاني 2وتعتبر هاتين الطريقتين الأكثر شيوعا واستعمالا في العالم الإسلامي بأكمله وإضافة إلى هاتين الطريقتين عرف المغرب الأوسط طريقتين جديدتين:

1-الطريقة الأولى: فبعد صقل وجه اللوح وتسويته وتخطيطه ثم الكتابة عليه يقوم النقاش بحفر الحروف أولا ، مستعملا من مسافة إلى أخرى حفرة صغيرة أو ثقب بداخل جوف الحروف ، ثم تملأ الحروف بالرصاص المذوب وبعدها يبرد الرصاص يسوى سطح اللوح من الرصاص البارز عن سطحه ،فتظهر الكتابة المنقوشة مصبوغة بالأسود على الرخام حيث يسهل قراءتها من الكتابة البارزة.

2-الطريقة الثانية: يزمع أنها أخذت من الشواهد الرومانية ، تتمثل هذه الطريقة في حفر الحروف قليلا ،قام بطلائها بالصبغة الحمراء لتصبح أكثر بروزا.

-في القرن 5هـ/ 11 م في نهاية العهد الفاطمي بدمشق استخدم النقاش المسلم ضربان من الشواهد فقط وهما :القبور المتوازية السطوح والمستطيلة ذات القرص المحزوزة ، ويستمر استعمال القبور المتوازية السطوح حتى منتصف القرن 6هـ/ 12م.

-في نهاية القرن 5هـ/ 11 م وبداية القرن 6هـ/ 12 م أثناء الحكم السلجوقي بدمشق برزت أنواع جديدة تمثلت في الشواهد الموشورية و المستطيلة ذات الإطارات المشدوقة واختفى هذا النوع في منتصف القرن 6هـ/ 12 م و في القرن 7هـ/ 13 م ظهرت الشواهد المستطيلة ذات القولية المسطحة .

- أما في نهاية القرن 6هـ/ 12 م في نهاية الفترة الأيوبية ظهرت الشواهد ذات القرص التي تؤطر بإفريز كتابي أو بشريط بسيط وبقي استعمالها حتى الفترة المملوكية إلا أن هذه الفترة سوف تتميز بنوع جديد من الشواهد ألا وهي : البلاطات المستطيلة التي يعلوها شاهد ملتصق به عمودين من الجانبين.

وظهرت شواهد على شكل المحاريب تتدلى من أعلى المحراب مشكاة ،كما ظهر شكل جديد آخر هو عبارة عن مستطيل تبرز منه ثلاث زوائد علوية واحدة في الوسط مستطيلة الشكل ذات حافة علوية واحدة في الوسط مستطيلة الشكل ذات حافة علوية مستقيمة أو مهرمة واثنتان في الركنين العلويين على شكل الثمن أو السداسي فوق كل منهما شيء .يشبه القبة وفي الزائدة الوسطى رسم مشكاة.

أما في الأندلس ظهرت أنواعا أخرى مختلفة:

الشواهد المستطيلة ذات الإطار والنقوش البارزة على سطح محفور ظهرت ابتداء من القرن 03-04 هـ/09-10م وتؤطر في جهاتها الثلاث ،بإطار ضيق محدد تملك المساحة .المكتوبة والتي تخلو من الزخرفة ،حيث بدأ ظهور الزخرفة عليها في القرن 6هـ/ 12م

كما ظهر نوع آخر من الشواهد المستطيلة ذات الإطار المنقوش المحفورة على مساحة مسطحة وهي عبارة عن بلاطات بسيطة مصنوعة إما من الشيسة أو الحجر الرملي، وليس لها شكل هندسي معين وتصقل الجهة الخاصة بالنقش الكتابي أما الظهر فيبقى على طبيعته وتؤرخ ما بين 300-590هـ/ 912-1154م

أما الشواهد الأسطوانية فقد ظهرت في القرنين : 04-05هـ/ 10-11م ، تنتهي أعمدتها بتقبيب مثمن الزوايا وتشكل على شكل أسطوانة عادية تتوج في أعلاها ،إما بتتويج أملس في المحور أم بحلقة بارزة وينقش للنص في ثلث الأسطوانة على نصف الدائرة بطريقة عمودية وتأطر النقوش بإطار مشكلا في خطوط أو بإفريز مزخرف بزخارف متشابكة أو . بإفريز كتابي.

أما شواهد المرية فقد نشأت مباشرة من الشواهد الرباعية الزوايا المؤطرة بإفريز كتابي على جهاتها الثلاث وبداخل هذا الإطار قوس قائم على عمودين ،يحتوي على بداية النص وينتهي بداخل القوس ويستمر على جهاته العمودية اليمنى ثم الأفقية العليا لكي ينتهي هذا النص في الجهة العمودية اليسرى ، وتشمل جوانب القوس على زخارف نباتية.

وقد ظهرت الشواهد الموشورية في أواخر القرن 6هـ/ 12م أما في المغرب فظهرت في 5هـ/ 11م و لا تزال مستعملة حتى يومنا هذا. وتصنع هذه الشواهد من الرخام المنخفض.

أما الشواهد القيروانية المؤرخة بين القرنين03-05هـ/ 09-11م فهي ثلاثة أشكال:

1-الشواهد ذات الشكل الرباعي الزوايا : وهي أنواع قديمة حيث توضع عموديا على القبور مشيرة إلى رأس الميت وهذه الشواهد خالية من الزخرفة .

2-الشواهد الأسطوانية : ظهرت في القرن 3هـ9 /م، اشتقت هذه الأشكال مباشرة من جدع العمود في العمارة الإسلامية، والذي في أغلب الأحيان ذو شكل جانبي كثيف وصلب بينما النقش ينفذ على نصف دائرة العمود وهذا قصد المحافظة على النص من البتر ، وقد حدثت بعض التغيرات في القرن 4هـ/ 10م على الحجارة والنصوص الكتابية.

3-الشواهد الموشورية :هناك افتراضات عديدة حول أصلها إذ البعض منهم يحاولون ربطها بشواهد القبور ذات الشكل النصف الأسطواني المرتكزة في بعض الأحيان على مدرجات مصنوعة من كتلة واحدة أو من أجزاء مختلفة وهي ذات أصل بونيقي ظهرت على الشواهد في أواخر القرن 4هـ 11 /م وعرفت باسم " الصنم " وتنقسم هذه الأنواع من الشواهد إلى ثلاث أشكال متباينة وهي:

أ -ذات الشكل الأحادي ،لايزال شكله قريب من التقبيب، حيث أن حواف الشاهد قطعت على شكل زاوية قائمة بينما الجزء الموشوري بشكل جزءا واحد مع القاعدة

-الخط على شواهد القبور :

اتفق الباحثون سواء أكانوا مسلمين أو مستشرقين غربيين على أن الخط اللين المغربي مشتق من الخط الكوفي اليابس، فيذكر في هذا المجال الكردي قائلا: "والخط المغربي مشتق من الخط الكوفي القديم، وأقدم ما وجد منه لا يرجع إلى ما قبل سنة ثلاثمائة للهجرة (أي سنة 912م)، وقد كان يسمى هذا الخط (القيرواني) نسبة إلى القيروان"، أما إبراهيم جمعة فهو الآخر يذكر نفس الشيء قائلا: "والخطان المغربي بنوعيه السوداني والمغربية مشتق لا من خط التدوين اللين الذي عرفته مصر منذ الفتح العربي، بل من الخط الكوفي المعروف، وإن كان أكثر منه مطاوعة في يد الطالب وأميل إلى الاستدارة"، ونفس الشيء يذكره الأستاذ والخطاط الجزائري شريفي من: "أن الكتابة المغربية اللينة قد اشتقت مباشرة من الخط الكوفي الجاف"، وهو ما ذهب إليه أيضا هوداس حيث يقول: "واكتفى المغاربة، في البداية، بتلطيف أشكال الكوفي الحادة، والمزواة دون أن يضيفوا إليه أكثر من نقط الحروف التي تكسبه كل ما تستطيع الكتابة العربية من دقة، وفيما بعد، زادوا في التأنق، عند تسطير بعض الحروف، وخففوا أشكال البعض الآخر المثقل".

أنواع شواهد القبور

شواهد القبور المدببة

:هي نوعان :

الأولى: عبارة عن ألواح مستطيلة ضيقة نوعا ما ,ترتكز على قواعد شبه مربعة تنتهي في الأعلى بنتوء مدبب ,زخرفت حواف بعض الشواهد بشريط مجدول وترك البعض الآخر أملس بدون زخارف ,نقشت كتابات النصوص داخل خراطيش مستطيلة ,ويضم هذا النمط أكبر عينة في المجموعة الموجودة بمتحف الفنون القديمة والإسلامية حيث تصل إلى 18قطعة كلها مصنوعة من مادة الرخام تتراوح أطولها ما بين 88) و 20سم (والعرض ما بين 27) و 16سم.

أما الثانية:

فيتكون هذا النوع من قطع ذات قواعد شبه مربعة يعلوها البدن في شكل مستطيل يضيق في الأعلى ليتوضع عليه عقد حدوي مدبب زخرفت جوانب بعض هذه القطع بشريط زخرفي في شكل حبل مجدول ,وترك البعض الآخر أملس ,ونقش النصوص الكتابية داخل خراطيش مدببة الجوانب يضم ثمان قطع شاهدية منحوتة من مادة الرخام الجيد.

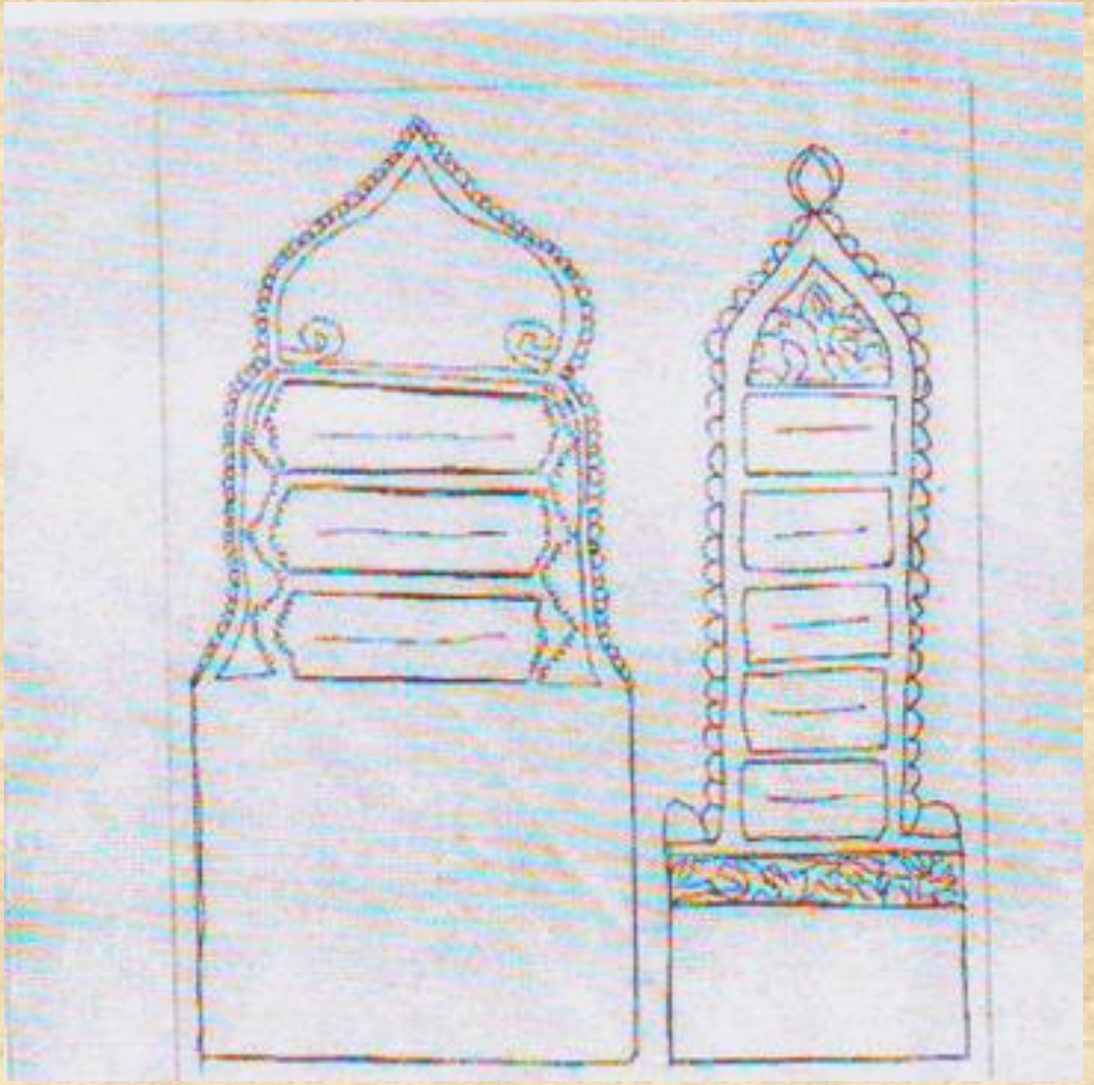

شواهد القبور المدببة

الشواهد ذات الرقبة البارزة القارورية

يتمثل هذا النمط في أشكال عبارة عن ألواح مستطيلة ترتكز على قواعد شبه مربعة تنتهي في الأعلى برقبة بارزة ,زخرفت حواف بعض القطع بأشرطة زخرفية مجدولة , وترك البعض الآخر أملس بدون زخارف ,تحتوي هذه المجموعة على زخارف الأرابسك والتي نقشت بطريقة الحفر البارز ,داخل مثلثات على شكل أقواس حدودية مدببة ,تنقش هذه الزخرفة في الجهة العلوية من الشاهد ,أي بين النص الكتابي والرقبة ,أما النقوش الكتابية فحددت داخل خراطيش مستطيلة أو مدببة الجوانب .

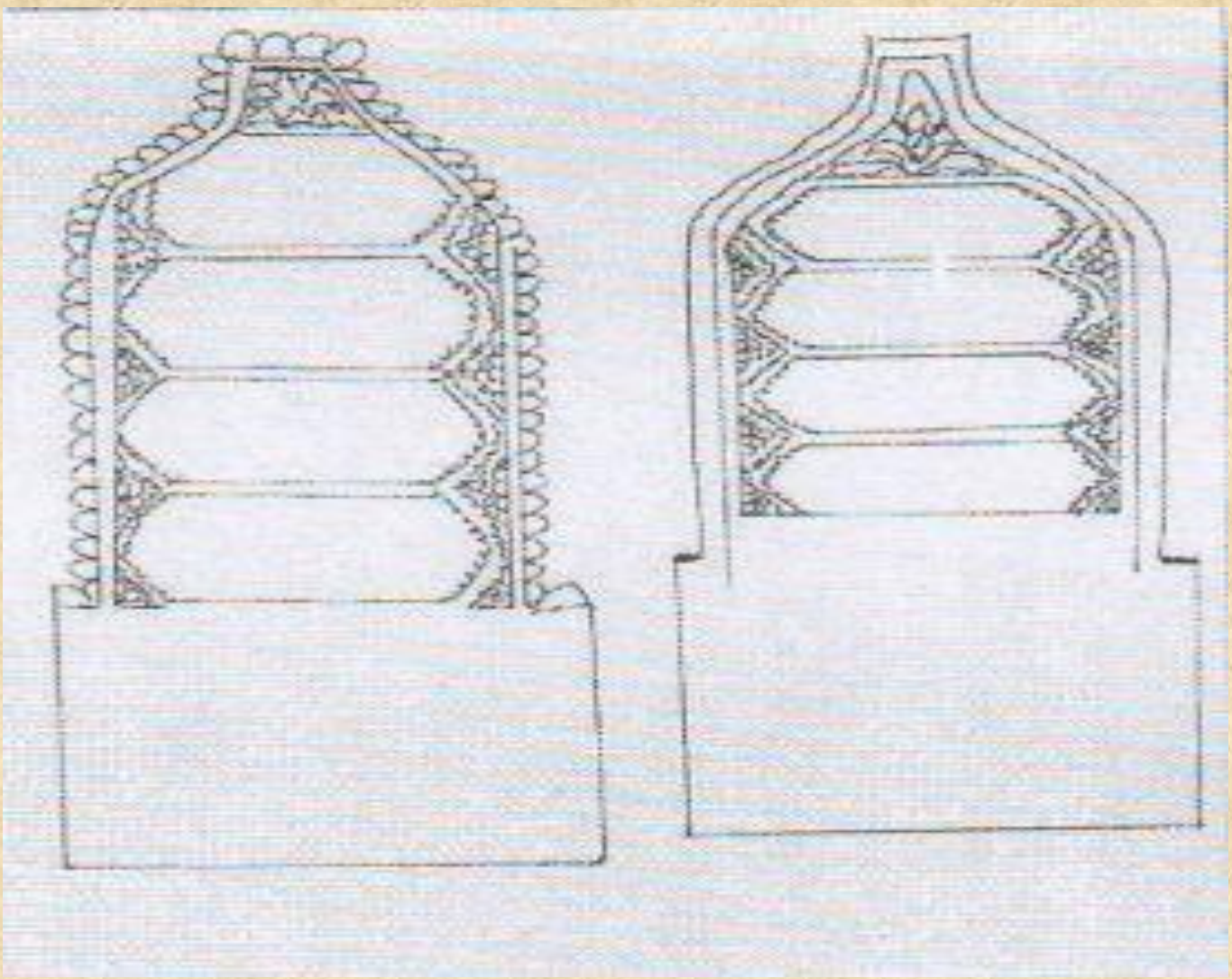

الشواهد القارورية

شواهد القبور القرصية المستديرة

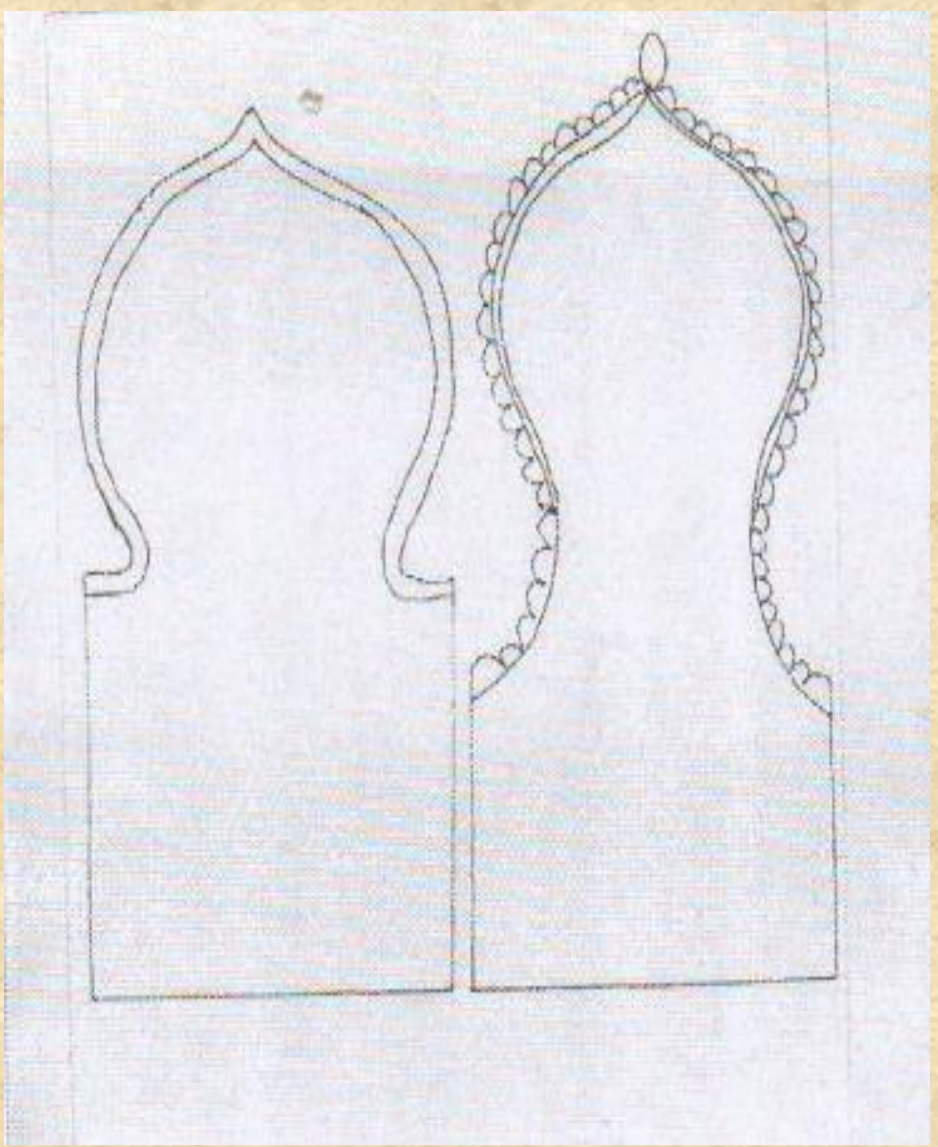

ذو شكل دائري تقريبا ويرتكز على قاعدة شبه مربعة تغطي تحت التراب لتثبت
ويبقى الجزء العلوي ,الشاهد المستدير بارزا تتراوح أطول أقطارها تنقش (سم 42و 28) ما بين نصوصها الكتابية مباشرة على اللوح ولا تحدد بالخراطيش وتترك أرضية كتابية بدون زخرفة.

الشواهد المنضدية ذات العقود:

هذه أنواع من الشواهد التي يرجع تاريخها إلى الفترة العثمانية, هي حلقة ربط وهمزة وصل بين الشواهد المربعة والدائرية أو القرصية, وهذا النوع من الشواهد يبرز ملامح التطور في الصورة العامة مع المحافظة على شكلها المربع النضدي, كما أفضت إلى تعديلات على مستوى القمة, وذلك من أجل تحسين وتجميل الشاهد بإضافة لمسات فنية متمثلة في تعويض زوايا المربع بأقواس وعقود شتى, يمكن تقسيمها إلى قسمين :

أ-الشواهد ذات العقود المفصصة.

إن أقدم نوع من هذا النمط هو عبارة عن شاهد مربع أو مستطيل الشكل من الرخام أو الخشب ،تنتهي قمتها بقوس مفتوحة شبه دائرية على شكل فصوص لتتوج في منتصف قمتها بزخرفة على شكل زهرة محورة تزينها مروحتين جانبيتين ,وبتجسيد هذا النموذج في شاهد قبر رخامي عثر عليه في مقبرة صالح باي بقسينطينة وهو شاهد قبر صالح باي . وتجدر الإشارة إلى أن هذا النوع من الشواهد كان قد ظهر مع بداية القرن الثالث عشر ونهاية القرن الثامن عشر.

ويلاحظ تزايد الاهتمام بهذه الصناعة من طرف الحرفيين والصناع ,ومدى الانتقال من الأساليب الزخرفيه البسيطة إلى الأساليب الزخرفيه المحورة التي كانت تنفذ على مستوى سطح الشاهد بمدينة تلمسان إلى التعقيد وأسلوب المحاكاة وذلك من أجل الحصول على البعد الزخرفي الفني أكثر فأكثر وهذا ما تراه في أسلوب فنانو مدينة قسنطينة الذين اعتمدوا أسلوب النحت المجسم.

ب -الشواهد ذات العقود البسيطة:

وهي أحدث عهدا من الشواهد ذات العقود المفصصة ,تتميز بالبساطة وعدم وجور
زخرفة نباتية تتوج قممها ,وتنتهي عادة بقوس مفتوحة نصف دائرية وقد وجد شاهد قبر بمقبرة صالح باي يدعم ما قلناه وهو شاهد قبر باية بنت صالح باي كما ورد ذكر اسم محمد الباهي سليل عائلة بخوجة فربما هو لحد . والشاهد هو رخامي يعود إلى القرن الثالث عشر الموافق للقرن التاسع عشر الميلادي.

-الشواهد المستطيلة:

هي شواهد مستطيلة الشكل قليلة السمك ,نقشت بداخلها كتابة بخط النسخ نفذت بأسلوب الحز ومثال ذلك شاهد القبر المكسور المتواجد بمتحف سيرتا وهو يعود لأحد أفراد عائلة خوجة وهي عائلة عريقة في قسنطينة تقلد أربابها مناصب عالية لدى الدولة العثمانية في قسنطينة.

شواهد ذات الحلقة الآدمية

تتكون من قطع مستطيلة تضيف في الأعلى لتشكل رقبة والتي بدورها تحمل فوقها دائرة مطموسة أو حلقة مفرغة على شكل هلال مغلق ,زخرفت حواف هذه القطع بشريط زخرفي في شكل حبل مجدول ,عدا القطع المصنوعة من الأردواز فتركت ملساء ,ويرجع ذلك لرداءة هذه المادة وعدم إمكانية تدقيق الزخارف عليها.

شواهدالقبور المعممة

يختلف عن بقية الأنماط الأخرى ,نحتت من مادة الرخام وهي في شكل أعمدة مضلعة أو أسطوانية يتراوح طولها ما بين 65سم و 150سم أما العرض فأضيقها 8سم وأوسعها يصل إلى 28سم يحمل كل عمود فوقه عمامة مزخرفة بطليات مائلة أو أفقية متوازية.
وتختلف عمامات الحكام نوعا ما عن عمامات الآخرين إذ كانت مسطحة قليلا
وهي عبارة عن لفائف أسطوانية الشكل تلف حول شاشية) قطعة (حمراء اللون ,أما ذوي المراكز العالية فيلبسون عمامة مجهزة مسبقا تكسو الرأس دون أن تغطي الرقبة ,ويكون النسيج يغطي الشاشية ملفوفا بطريقة التطابق الأفقي بحيث تظهر هذه الأخيرة من فوق.

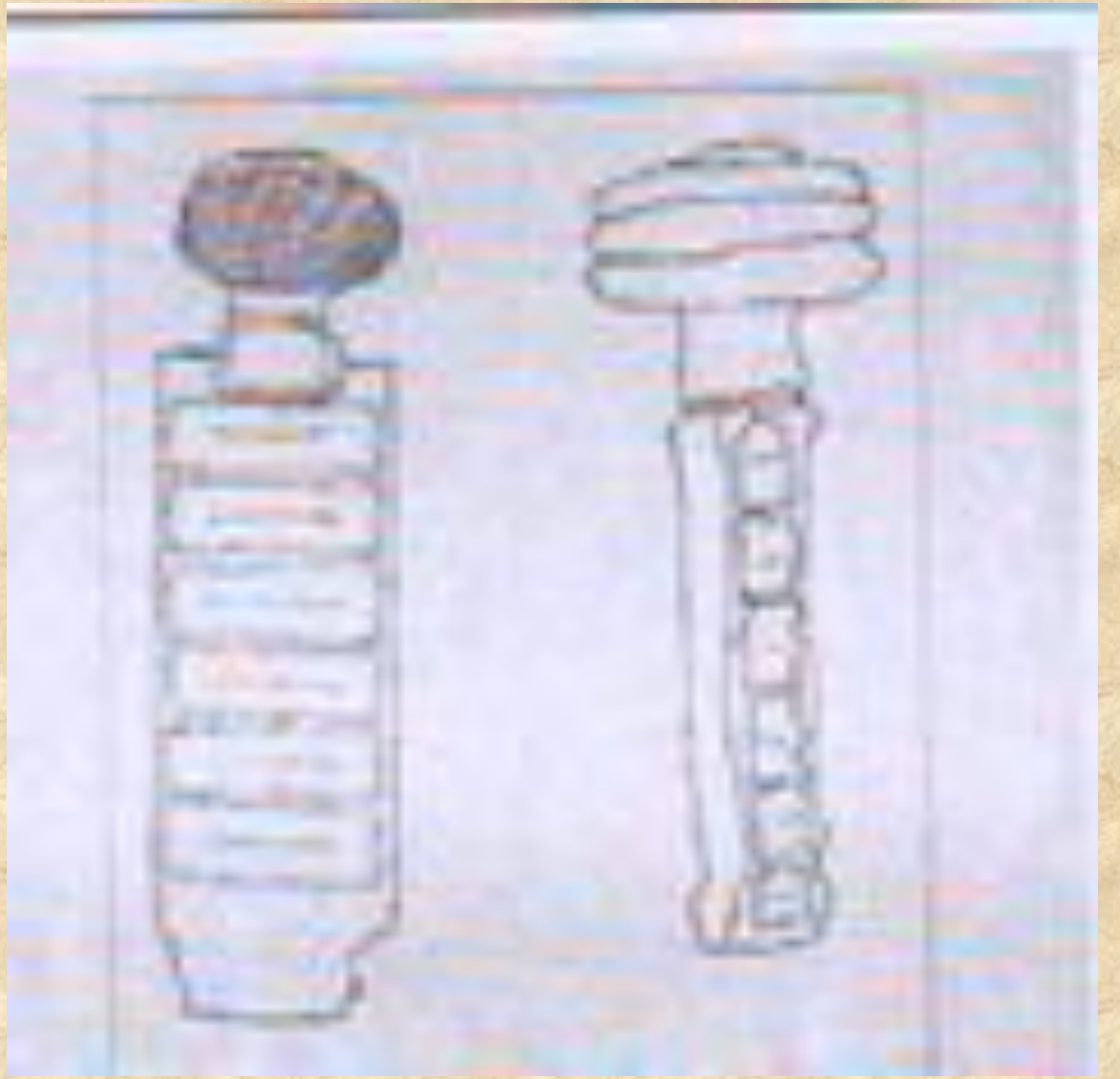

الشواهد المعممة

الشواهد المعممة

-شواهد القبورالقرصية المستديرة:

ذو شكل دائري تقريبا ويرتكز على قاعدة شبه مربعة تغطي تحت التراب لتثبت

ويبقى الجزء العلوي ,الشاهد المستدير بارزا تتراوح أطول أقطارها تنقش (سم 42و 28) ما بين نصوصها الكتابية مباشرة على اللوح ولا تحدد بالخراطيش وتترك أرضية كتابية بدون زخرفة،فهذه الشواهد الدائرية من حيث بعدها التاريخي هي أعرق في القدم ومن حيث الرقعة الجغرافية فهي كذلك أوسع انتشارا في معظم أرجاء العالم القديم ولا سيما في حوض البحر المتوسط.

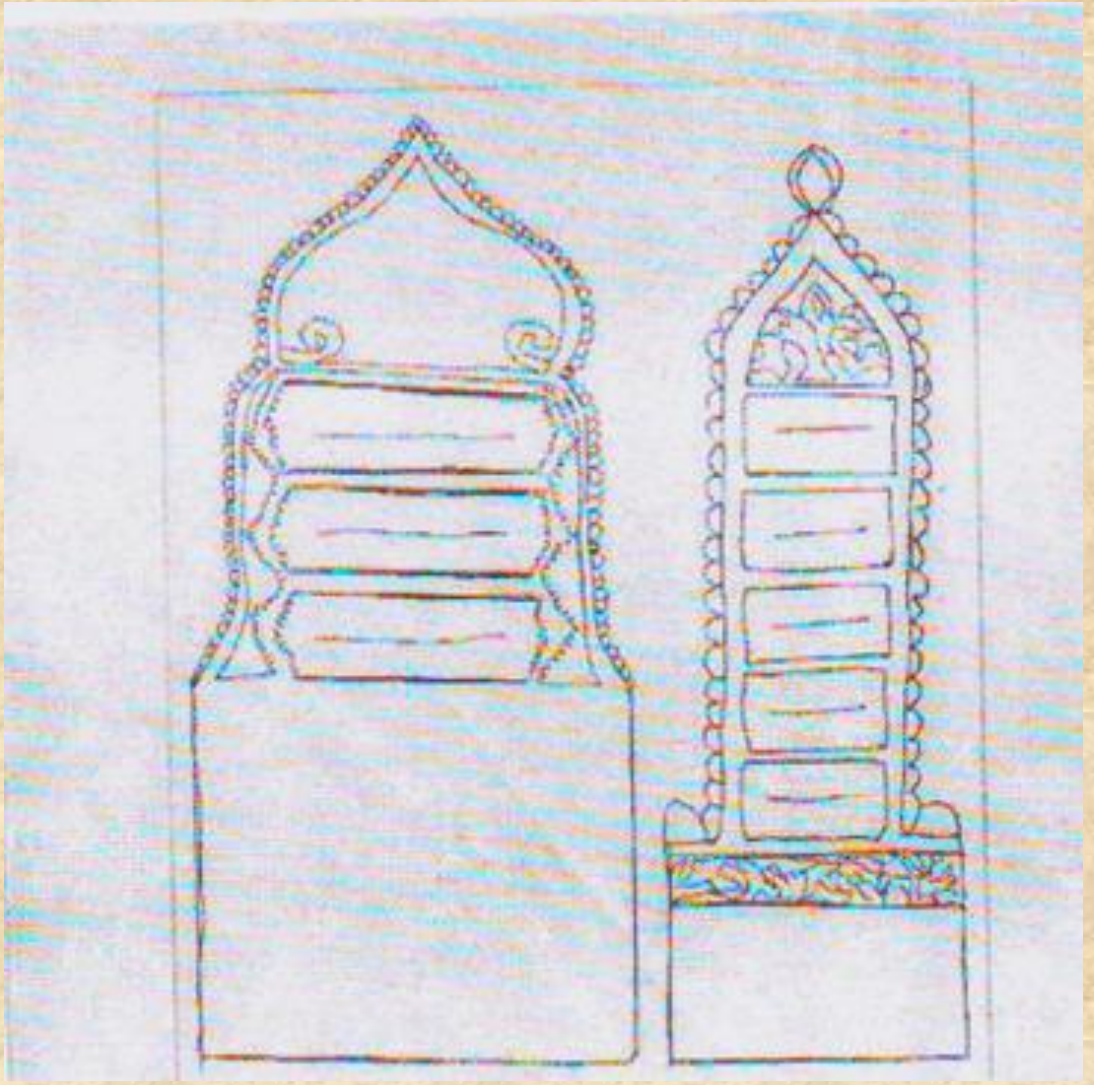

شواهد القبور المدببة

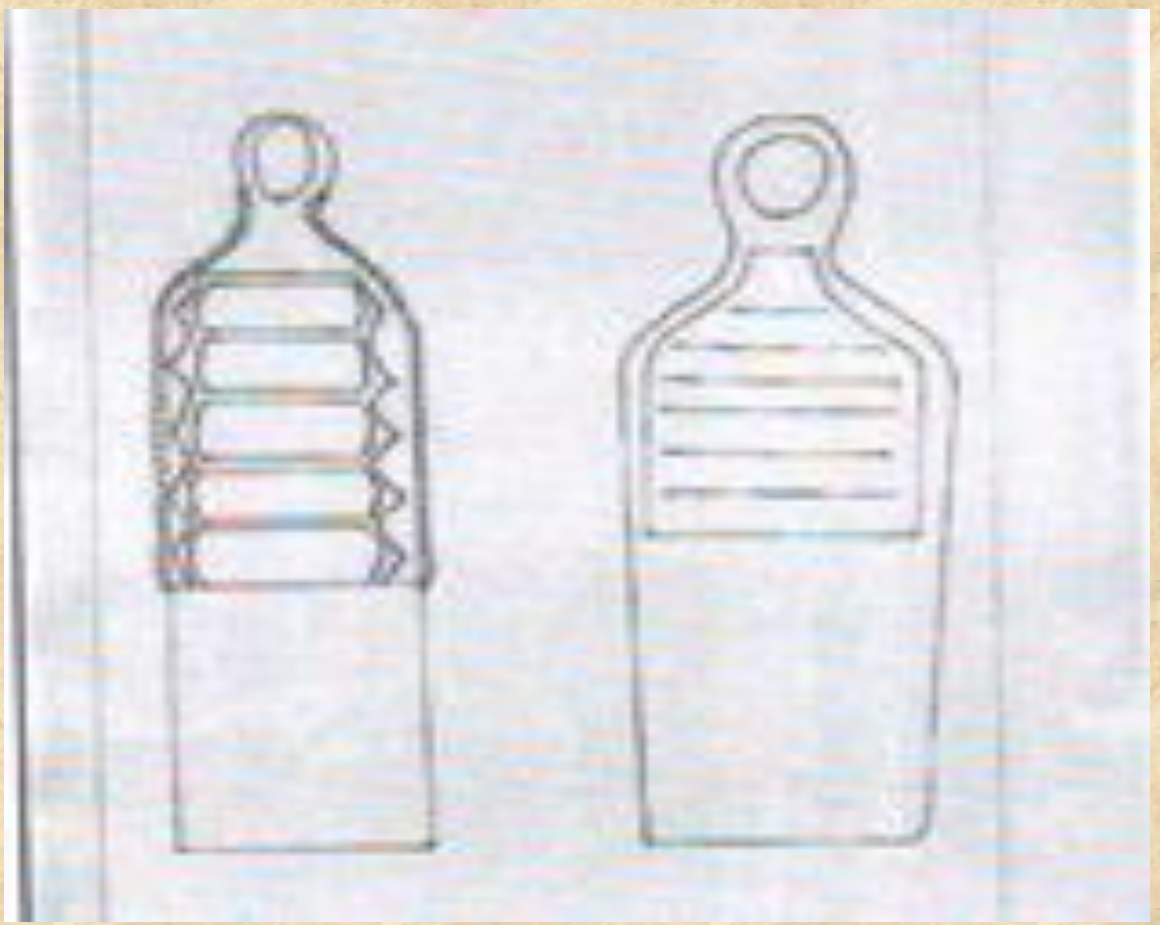

الشواهد ذات الحلقة

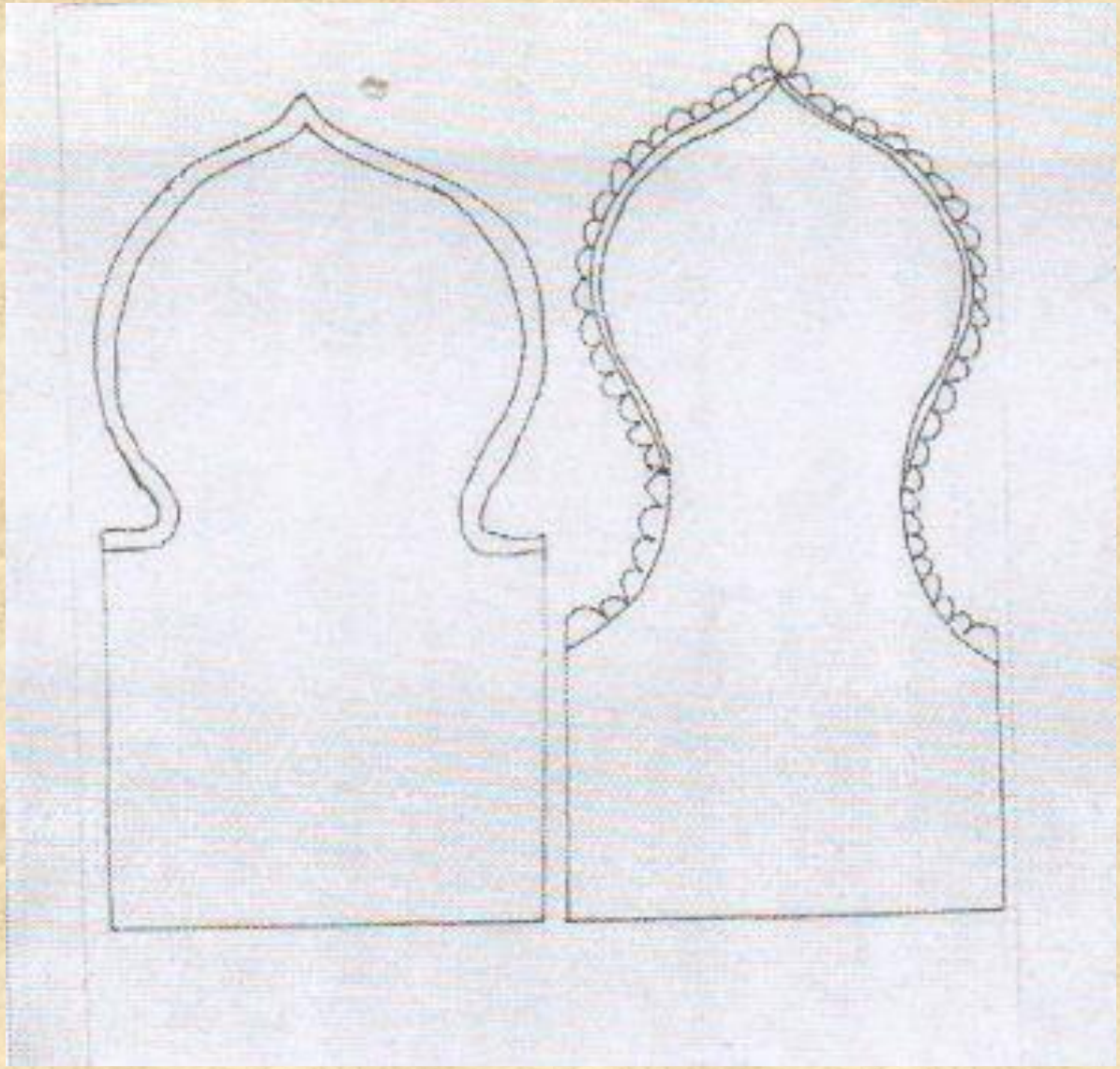

الشواهد القرصية